هنـــــد أبـــو الشعـــــــــر: موثِّقـــة،

د . جورج طريف *

تعود معرفتي بالدكتورة هند أبو الشعر عندما كنا طلابًا في قسم التاريخ في الجامعة الأردنية، خلال مرحلتي البكالوريوس والماجستير، وشاءت الأقدار أن نكون زملاء دراسة في مرحلة الدكتوراه في الجامعة الأردنية، وأن نتتلمذ على أيدي أساتذة كبار عز نظيرهم، أذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، والأستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة، رحمهما الله، والأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، والأستاذ الدكتور علي محافظة، أطال الله في عمريهما، وغيرهم من الأساتذة الكبار، ومن ثم أصبحنا زملاء في العمل الأكاديمي والبحث، وإعداد الدراسات، واللجان المشتركة، والمؤتمرات والندوات وورشات العمل، والمحاضرات في مجالات عدة.

* محاضر في العديد من الجامعات الأردنية، وإعلامي، وكاتب صحفي.

الدكتورة هند مؤرخة، وموثقة، وشمولية في آن واحد؛ لسببين؛ الأول كونها جمعت بين تخصصين في التاريخ هما التاريخ الإسلامي؛ إذ حصلت على الماجستير في هذا المجال، وكانت رسالتها تحمل عنوان «المختار الثقفي»[١]، تحت إشراف العلامة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، رحمه الله، والدكتوراة في التاريخ العثماني والحديث، وتحمل عنوان «إربد وجوارها»[٢] تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، أطال الله في عمره. أما السبب الثاني فلكونها غزيرة الإنتاج في هذين المجالين، وتعتمد، في كل دراساتها وإنتاجها العلمي، على المصادر الأساسية في التاريخ الإسلامي، والوثائق في التاريخ العثماني، كسجلات الطابو، والمحاكم الشرعية، والأوقاف، والمالية، والصحف والمجلات التي كانت تصدر في تلك الفترة، ولها ما يزيد على ٥٠ مؤلفًا أو بحثًا أو ورقة عمل أو مشاركة في مؤتمرات وندوات تبحث في تلك المجالات، وشاركت في إصدار ما يزيد على ثلاثة وثلاثين مجلدًا من الوثائق الهاشمية التي ما زالت تصدر حتى الآن[٣].

كما شملت دراساتها وكتبها وأبحاثها معظم مدن وقرى الأردن[٤]، وفلسطين (إربد والسلط وعمان ومادبا والزرقاء والكرك ومعان والمفرق والقدس ونابلس) عدا الدراسات المتعلقة بدمشق وبغداد والبصرة ومناطق أخرى من بلاد الشام[٥].

كرست الدكتورة هند حياتها وشبابها المتجدد للفعل الثقافي والعمل الأكاديمي، وأجزم أن جل وقتها اليومي مكرس لخدمة العلم. تصل الليل بالنهار باحثة عن معلومة هنا، أو فكرة هناك بين الكتب والوثائق التي تحرص على الحصول عليها والاستفادة منها.

ولأنها مؤرخة، فقد ارتبط الماضي عندها بالحاضر والمستقبل؛ لذا نجدها تقتبس من ماضينا كل ما يخدم أجيالنا القادمة، وتستثمر الحاضر بما يبعث على شحذ الهمم والعزائم، متطلعة، ومستشرفة المستقبل بعين ثاقبة، وهي أيضًا، وبكل تواضع واعتزاز وفي كل مناسبة،

تعيد الفضل لأصحابه، بدليل تأكيدها، دائمًا، أن فتح بوابة التاريخ المحلي، ودراسته بأكاديمية رصينة، يعود الفضل فيه إلى الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام؛ لأنه صاحب مدرسة، ولأنه وجّه مجموعة من تلاميذه ـ ونحن منهم ـ نحو مرحلة محددة في التاريخ العربي الحديث (بلاد الشام في العهد العثماني)، ثم إنه فتح باب المصادر المتعددة بتأسيسه مركز الوثائق والمخطوطات، مثلما تؤكد الدكتورة هند أن الأستاذ الدوري علّامة ساهمت كتاباته في رفد المكتبة العربية بنفائس الكتب التي تتحدث عن نشأة علم التاريخ والمنهج العلمي الرصين في البحث العلمي، ووضع الأسس المتينة لدراسة التاريخ الاقتصادي العربي الإسلامي، ولا أظن مؤرخًا على وجه البسيطة ينكر ذلك. لقد سارت الدكتورة هند على نهج هؤلاء الأساتذة، وما زالت تعمل وتبذل ما في وسعها لإنجاز المزيد، وهي بكل صدر رحب تتقبل النقد البناء وتستفيد منه، وتوظفه في أبحاثها ودراستها، وهي أيضًا أداة طيعة لخدمة التاريخ والأدب، ما تعلق منه بالشأن العربي بشكل عام، والأردني بشكل خاص.

منهج الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر في الكتابة التاريخية:

تحرص الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر، في كتابتها التاريخية، على الاستخدام الأمثل للمصادر وبيان أهميتها للقارئ أو الباحث، ومدى استفادتها من توظيف هذه المصادر في البحث العلمي، ولم تكن في إنتاجها العلمي أسيرة فترة معينة، بل كتبت في معظم فترات التاريخ، لها رؤى ثاقبة تجاه الأحداث، لا تكتفي بسردها بل تقوم بتحليلها ومعرفة الأسباب والنتائج. والمتابع لكتاباتها يلحظ بوضوح شخصيتها وقدرتها على التحليل والوصول إلى الحقيقة.

وتبين، مثلًا، أن لسجلات الطابو وخرائط التسوية، بأنواعها المختلفة، قيمة علمية مميزة، فهي مصدر أساسي من المصادر المباشرة والمحلية الشاملة، وتتمتع بمصداقية إيراد المعلومة الدقيقة، وتساعد الباحث في التعرف على جغرافية منطقة الدراسة بدقة وتفصيل، من حيث مصادر المياه من آبار وبرك وينابيع وأودية دائمة الجريان، وسيول وقنوات، وأنواع التربة، سواء أكانت رملية أم صخرية أم زراعية، مثلما تحدد أحواض وحدود للقرى والمدن والمزارع والتضاريس البارزة في المنطقة، من أودية وأنهار وجبال وغيرها .

كما تحدد سجلات الطابو التطورات الاقتصادية في القرى والمدن، من حيث أنواع الأراضي الملك، والميري، والمتروكة، والوقفية، والسليخ، والموات وغيرها، وكذلك الحارات والطرق والأزقة وحدود البيوت والمزارع والبيوت والدكاكين ومساحاتها، وحجم الملكيات وعدد المالكين، وكيفية عملية انتقال الملكية عن طريق التوريث أو البيع والشراء، وأنواع البيع كالبيع الوفائي والرهونات والتوكيل، وأنواع العملة المتداولة وغير ذلك الكثير .

وتقول الدكتورة هند عن هذه السجلات إنه لا يمكن فهم محتويات سجلات الطابو إلا بدراسة إجراءات الطابو، والتعرف على السندات وأنواعها التي تحدد الملكيات الصغيرة والكبيرة، ابتداء من سنة ١٨٧٢، حيث أقرت الدفتر خانة إجراء «اليوقلمة»، التي تعني الكشف الميداني على الأراضي تمهيدًا لتسجيلها على الواقع، كما أن استخدام دفاتر الطابو يتطلب العودة إلى التعريف نامة، التي نشرت العام ١٨٦٠، وهي الدليل الذي يعود إليه مأمور اليوقلمة للتعامل مع الدفاتر وتسجيل البيانات، وبالتالي فهي مفتاح قراءة الدفاتر والتعامل معها، وبغير ذلك تبقى هذه السجلات عصية على الفهم والتحليل.[٦]

وقد عملنا، أنا والدكتورة هند والدكتور نوفان السوارية، رحمه الله، العامين ١٩٩٢ و١٩٩٣ على دراسة هذه السجلات التي شكلت مصدرًا أساسيًّا لدراساتنا المتعلقة بالتاريخ المحلي،

عندما كانت محفوظة في قبو دائرة الأراضي على جبل اللويبدة في عمان، وأكملت عملها الدكتورة هند في دراسة سجلات دائرة أراضي إربد في ذلك الحين، واعتمدت عليها بعد الدكتوراة في تأليف العديد من الكتب والأبحاث والدراسات المتعلقة بتاريخ الأردن من مختلف النواحي.

لم تكن سجلات الأراضي الوحيدة التي اعتمدت عليها الدكتورة هند، فقد اعتمدت، في دراساتها ومؤلفاتها، على دراسة سجلات المحاكم الشرعية لجميع المدن الأردنية والمحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

وكما تعلمون، فإن سجلات المحاكم الشرعية تشكل مصدرًا أساسيًّا ومهمًّا لدراسة التاريخ الإداري والاجتماعي والاقتصادي والعمراني والفكري والعلمي والصحي لكل مدينة وقرية في بلاد الشام، الأمر الذي يؤدي الى توفير معلومات محلية دقيقة ومباشرة تغطي النقص الذي يعاني منه الباحثون في المادة التي تقدمها كتب التاريخ، حتى يمكننا القول إن أي دراسة لتاريخ أي بقعة من بلاد الشام تبقى ناقصة إذا لم يستفد الباحث من هذه السجلات[٧].

ومن مؤلفات الدكتورة هند التي اعتمدت فيها على سجلات الطابو وسجلات المحاكم الشرعية، كتاب (إربد وجوارها)، و(تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني (١٥١٦م-١٩١٨م))، وكتاب (دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأردن في العهدين العثماني وإمارة شرقي الأردن)[٨]، إضافة إلى العديد من الأبحاث والدراسات، نذكر منها (مجتمع قصبة السلط (١٨٥٠-١٩٥٠م))[٩]، و(الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمرأة الأردنية أواخر العهد العثماني وعهد إمارة شرقي الأردن (١٨٥٠-١٩٤٦م) السجلات مصدرًا)[١٠].

وأعطت الدكتورة هند اهتمامًا خاص لسجلات قرارات المجالس البلدية، كونها تشكل

مصدرًا رئيسًا للتاريخ المحلي، وبدأ الاهتمام بها متأخرًا، على الرغم من أهميتها في دراسة تطور المجتمع المحلي في مختلف المدن والقرى، وتعطي هذه السجلات صورة واضحة عن الحياة اليومية للسكان من مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والصحية والتعليمية، وتبين بوضوح الأبنية والدور والمحلات والطرق والأسواق والأزقة والأرصفة والآبار والمسالخ والأوزان والمكاييل والدوائر الحكومية والمراكز الصحية والمدارس والمساجد والكنائس والمقابر، وغيرها من المرافق العامة والخاصة، واستفادت الدكتورة هند من هذه السجلات في دراسة السكان، من حيث دياناتهم وطوائفهم وعشائرهم وأعدادهم، وتوزيعهم على الحارات والمناطق ومهنهم المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة وما إلى ذلك.

ومن كتب ودراسات الدكتورة هند التي اعتمدت فيها على السجلات البلدية نذكر: (مادبا (١٩٢٣ ـ ١٩٢٧م) الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقررات مجلس البلدية)[١١]، و(معان (المظاهر الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجلّ مقررات مجلس البلدية) ١٩٢٩ -١٩٣١م) [١٢]، و(قصبة السلط في مطلع عهد إمارة شرقي الأردن (سجلات البلدية مصدرًا))[١٣].

كما أعطت الدكتورة هند اهتمامًا خاصًّا لسجلات النفوس، نظرًا لأهميتها في دراسة السكان من سائر النواحي، من حيث قبائلهم وطوائفهم وانتماءاتهم، وتوزيعهم على الحارات والمحلات، ومهنهم، ودورهم في تطور وبناء المجتمع المحلي في العصور المختلفة، ولها دراسة منشورة عن سجلات النفوس العثمانية كمصدر تاريخي (سجل نفوس قرية الشوبك نموذجًا) [١٤].

واهتمت كذلك بالسجلات المالية كمصدر تاريخي يحتوي على معلومات اقتصادية قيمة تفيد في فهم الواقع الاقتصادي لحياة السكان، ودور الدولة في الموازنة بين توفير الخدمات

وجمع الواردات والضرائب والرسوم وما إلى ذلك، مثل دراسة ملكية الأرض والضرائب في قرية حوارة في أواخر العهد العثماني، (السجلات المالية مصدراً)[١٥]، ودراسة ملكية الأرض والضرائب في قصبة إربد في أواخر العهد العثماني (سجلات المالية مصدرًا)[١٦]، وقرية الحصن منذ أواخر العهد العثماني وحتى تسوية الأراضي (١٨٩٠م ـ ١٩٣٦م) قراءة اقتصادية واجتماعية استناداً إلى سجلات المالية العثمانية[١٧].

وكان للدكتورة هند أبو الشعر اهتمام بالصحافة كمصدر تاريخي سلطت الأضواء من خلالها على مجريات الأحداث اليومية في المدن والبلدات والقرى الأردنية، مثل (كتاب تاريخ الأردن ـ الصحافة مصدرًا ١٨٧٦ـ١٩٢٣)[١٨]، منشورات البنك الأهلي ٢٠١٥م، ودراستها للأنظمة والقوانين والإجراءات المالية في عهد الحكومة العربية الفيصلية (١٣٣٧هـ / ١٣٣٨هـ ـ أيلول ١٩١٨ ـ تموز ١٩٢٠م) جريدة العاصمة مصدراً[١٩].

ونشرت الدكتورة هند في صحيفة الرأي سلسلة من أعداد مجلة الرائد التي صدرت في الأردن العام ١٩٤٥، وكان رئيس تحريرها أمين أبو الشعر، وسلسلة من أعداد جريدة القبلة التي صدرت العام ١٩١٦ في مكة المكرمة، ومذكرات بعض رجالات الثورة العربية الكبرى. وقبل عدة أيام صدر لها العدد الأول من موسوعة تاريخ الأردن، بمناسبة الاحتفالات بمئوية الدولة الأردنية، كما صدر كتاب آخر بعنوان (القدس العثمانية كما وثقها جورجي حبيب حنانيا خلال الفترة ما بين عامي ١٩٠٨-١٩١٤)،كما تقوم في الوقت ذاته بإعداد دراسات عديدة عن مدينة القدس.

ولا بد، أخيرًا، من ملاحظة؛ إذ إن الأصل في وسائل الإعلام أن تكون منفتحة على باقي العلوم، من خلال توجيه المجتمع وتعريفه بأهميتها في حياتنا العملية، بالإضافة إلى أهداف أخرى لا مجال لذكرها هنا. وقد دخلت الدكتورة هند الإعلام من أوسع أبوابه، فقد أعدت

وقدمت برامج إذاعية، وقد اكتسب برنامجها (أوراق أردنية) شهرة واسعة، وما زالت حلقاته تبث في إذاعاتنا الأردنية، كما شاركت في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، كما أنها كتبت في العديد من الصحف المحلية والعربية في قضايا ثقافية وتاريخية متنوعة.

الدكتورة هند أبو الشعر قامة علمية شمولية ومميزة، وإنجازاتها العلمية كبيرة ومتنوعة، وهي مرجع مهم للدارسين والباحثين والمهتمين. أتمنى لها دوام الصحة والعافية، وأتمنى لها ولكم النجاح والتوفيق.

الهوامش

(١) هند أبو الشعر، **حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة**، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، ١٩٨٤.

(٢) هند أبو الشعر، **إربد وجوارها (ناحية بني عبيد)**، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر: **الوثائق الهاشمية، أوراق عبد الله بن الحسين، العلاقات الأردنية المصرية ١٩٤٦-١٩٥٠ م١٢، ق٢، ٢٠١٧، والطب والأطباء في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية ١٩٢٥-١٩٥١**، مجلد٢٣، لسنة ٢٠١٨م.

(٤) انظر على سبيل المثال: **تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني (١٥١٦م-١٩١٨م)**، صدر عن منشورات مؤسسة آل البيت (مآب)، ضمن سلسلة اللجنة الملكية لدراسة تاريخ شرقي الأردن، وكتاب **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأردن في العهدين العثماني وإمارة شرقي الأردن**، صادر عن الدائرة الثقافية في أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠٧م.

(٥) انظر على سبيل المثال: **الأوقاف الإسلامية والمسيحية في القدس**، هند أبو الشعر، الأبعاد التاريخية، مصادر التوثيق، والتراث المقدسي المهدد، تحرير ومشاركة ببحث، صادر عن منتدى الفكر العربي، عمان، سلسلة القدس في الضمير، عام ٢٠١٤ م، وبيت المقدس في العهد المملوكي المتأخر (قراءة في كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لقاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م ـ ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)، بحث قدم في منتدى الفكر العربي بعمان، بمناسبة الاحتفالية بالقدس عاصمة للثقافة العربية، منشور في مجلة المنتدى، ٢٠١٠م.

صورة العثمانيين في مجتمع دمشق أواخر أيام المماليك (كتب اليوميات مصدراً) بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي المنعقد في جامعة دمشق بعنوان (دمشق في التاريخ)، تشرين الثاني ٢٠٠٦م، ونشر في كتاب صادر عن جامعة دمشق.

(٦) هند أبو الشعر، **سجلات الطابو العثمانية، دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث**، منشورات جامعة آل البيت، ١٩٩٨، ص٢٢٩-٢٣٠.

وانظر أيضًا: هند أبو الشعر، **قراءة في الأوضاع الاقتصادية والعمرانية في لواء عجلون في القرن العاشر**

الهجري/ السادس عشر الميلادي (دفاتر الطابو مصدراً)، بحث مقدم لندوة: الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، جامعة آل البيت، ١٩٩٩م، منشور ضمن كتاب **الدولة العثمانية بدايات ونهايات**، تحرير: هند أبو الشعر، محمد الأرناؤوط، ومحمد الحافظ النقر.

(٧) جورج طريف، **سجلات المحاكم الشرعية مصدر أساسي في التاريخ الحديث ـ دراسة حالة السلط، دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث**، منشورات جامعة آل البيت، عمان ١٩٩٨م. ص١٣٦.

(٨) انظر هامش رقم ٤ ص٢ من هذه الدراسة .

(٩) دراسة قدمت إلى مؤتمر (التاريخ الاجتماعي بمدينة السلط) كانون الأول ٢٠٠٨م، باحتفالية وزارة الثقافة بالسلط مدينة الثقافة لعام ٢٠٠٨م.

(١٠) بحث مقدم إلى المؤتمر الثقافي الخامس، الجامعة الأردنية، آذار ٢٠٠٩م.

(١١) دراسة وتحقيق هند أبو الشعر وعبد الله العساف، من منشورات مادبا مدينة الثقافة، وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠١٢ م عمانّ

(١٢) دراسة وتحقيق هند أبو الشعر وعبد الله العساف، نشر بدعم من البنك الأهلي، عمانّ. ٢٠١٣ م

(١٣) بحث منشور في مجلة مؤتة للبحوث والدراسات.

(١٤) بحث منشور في المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمان، ٢٠١٠م

(١٥) بحث منشور في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية.

(١٦) بحث منشور في مجلة المنارة، جامعة آل البيت.

(١٧) منشور في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م

(١٨) منشورات البنك الأهلي، ٢٠١٥م.

(١٩) بحث مقدم إلى ندوة **بناء الدولة العربية الحديثة، تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق**. منشور في كتاب: **بناء الدولة العربية الحديثة**، إعداد وتحرير هند غسان أبو الشعر، منشورات جامعة آل البيت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.